وربما فكر إيفان كما يلي : اليوم ضربوا افضل اصدقائي وغدا سيأتي دوري . وكانت المشاهد التي هي من هذا القبيل جزءا من الحياة اليومية ولكن الفراندوق الشاب لم يكن قد شارك فيها قط قبل هذا اليوم . وكانت التجاوزات الكبيرة لا يرتكبها البالغون وحدهم بل امتدت الى ابنائهم ايضا . والالعاب المفضلة لدى الامراء الفتيان كانت تشكيل العصابات والقيام بالهجومات المسلحة . ولم يكن الامر يقتصر على ضرب الفلاحين والباعة ضربا مبرحا كل يوم لانهم ليسوا جزءا من التاريخ كما كان يفهم في ذلك العصر بل كان الناس يلاحقون ويقتلون كالحيوانات المتوحشة ويعتبر ذلك دائما من الحوادث الاعتيادية التي لا تثير اي فضول . كان العصر قاسيا ومضطربا ، ولم يكن تقي الشعب المعذب يعدل شيئا من بربريته ولا من تعطشه العنيف للفجور . اما الفقه التي لم يكن يشجعها احد فكانت مظهرا من مظاهر الضعف . والتمتع بمشهد القسوة كان جزءا من تربية اي امير فتي . ولما يدرب صغار النمور على سر الدم كي تنمو فيهم غريزة الافتراس كذلك كان صغار الامراء يقادون الى غرف التعذيب لتستيقظ فيهم مشاعر القسوة . والحيوانات التي يتم اسرها في الصيد كانت تقاد الى ساحات الكريملين ليقتلها الاولاد بعد ان يقوموا بتعذيبها . ولم يكن احد يعترض . ويقال إن افضل تسليات إيفان كانت رمي الكلاب من اعلى اسوار الحصن . ولم يكن القائمون على تربيته يسمحون له بذلك فقط كما يقول كورسكي مؤرخ ذلك العصر بل كانوا يمتدحون امامه هذا الصنيع .

في الثالثة عشرة من عمره كان إيفان ذا طبع بارد . وكان بمكن ان يعزى هذا المزاج إلى الحزن لأن المعاملة السيئة التي تعرض لها بعد وفاة امه حطمت قلبه . وحتى السابعة من عمره كانوا يبدون الخوف منه ويظهرون له توقيرا مبالغا فيه . ثم بعد ذلك لم يعد يلتفت إليه احد . وقد دخلت المظالم التي تعرض لها إلى اعماق اعماقه حيث كان يتراكم الانتقام والكراهية الهادئة الشرسة . وبما انه كان عاجزا عن نيل مساندة الرجال سعى الطفل لأن يجد ملجأ له في الكتب واستغرق في دراسة